



«العسكرة الروسية» في سورية لم تتضح معالمها كاملة بعد. لكنها بالتأكيد تندرج في إطار سياسة استراتيجية. إنها خطوة في إطار مشروع قديم. وتطور طبيعي لنهج الرئيس فلاديمير بوتين. نهج عبر عنه أفضل تعبير يغفني بريماكوف في أكثر من مناسبة وكتاب وخطاب. حتى يخيل أن سيد الكرملين يسير على خطى نظرية صديقه الذي نعاشه قبل أشهر. وصفه بأنه رجل دولة وعالم وسياسي ترك إرثاً ضخماً جداً. وأنه أراد دوماً أن يستمع إلى آرائه في القضايا الدولية.

وخلالصة النظرية أن بلاده الضعيفة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي لا يمكنها مواجهة الولايات المتحدة والغرب عموماً. لكنها يمكن أن تعود قوة عظمى كما في السابق بالحفاظ على «الخارج القريب» من الفضاء الروسي. أي الجمهوريات السوفيتية السابقة. ثم الانطلاق بالتدريج نحو الأبعد. دعا إلى تمتين عرى «رابطة الدول المستقلة» (روسيا وبيلاروسيا وأوكرانيا ومولدوفيا وجورجيا وأرمينيا وأذربيجان وتركمانستان وأوزبكستان وكازاخستان وطاجيكستان وقرغيزستان). ونادي باكرا، مطلع التسعينات، بقيام «المثلث الذهبي» مع الهند والصين.

لم يحضر على مقاطعة أميركا بل حض على التفاوض معها. وبالفعل قاوم الرئيس الروسي سعي «الناتو» إلى ضرب طوق حول بلاده. لم يتردد لحظة، كما هو معروف، في اقتطاع أوسيتيا وأبخازيا من جورجيا عندما شعر بأنها تسعى إلى دخول الحلف، واستضافة جزء من « الدرع الصاروخية» للأطلسي. كما لم يتردد في القفز إلى أوكرانيا واقتطاع ما طالته يده. وهو يرفع عصا التهديد في وجه دول البلطيق بذرعة حماية المجموعات الروسية في هذه البلدان.

وبريماكوف هو أيضاً صاحب مقوله أن روسيا «لا يمكنها إلا أن تكون في الشرق الأوسط، ولا أريد أن يتكون انطباع لدى أيّ كان بأنها تنوي الذهاب من هناك». وهذا ما يريد تأكيده الرئيس بوتين من انخراطه العميق في الأزمة السورية.

وهو استمع إليه بوجوب استعادة صداقات السوفيات التاريخية مع العرب، من مصر إلى العراق وما تيسر بينهما في الطريق.

والواقع أن روسيا منذ أيام بطرس الأكبر تجد صعوبة في التصالح مع الغرب، أي أنها ترفض سيطرة أميركا وأوروبا عليها، ليس بمعنى القوة أو الحرب، بل بالمفاهيم الثقافية وطرق الحكم والإدارة وسياسة الناس. تؤمن بأن لها دوراً خاصاً ومختلفاً.

والدعاية التي يروج لها الإعلام الروسي اليوم استعادة للإعلام السوفيتي: الغرب هو العدو. مع فارق واضح أن الناس كانوا أيام الحرب الباردة يتوقعون إلى الانعتاق وعيونهم على أوروبا وأميركا. فيما تحفظهم اليوم روح قومية صاعدة. ويقفون خلف زعيمهم على رغم كل ما يقال عن المعارضة. وعلى رغم أن الأزمة الاقتصادية مستفلة بفعل العقوبات وتدني أسعار الوقود.

ولا شك في أن الرئيس بوتين أفاد في «هجومه» من «قعود» الإدارة الأميركيـة الحالية، أو اعتكافها وترددـها في المبادرة الجدية والمواجهة، ليعزز نفوذه ودوره في أزمـتي جورجـيا وأوكرانيا أو في أزمـات الشرـق الأوسط عمومـاً وسورـية خصوصـاً.

وكان من سنوات بدأ بتحديث المؤسسة العسكرية وتحويل جيشه قوات محترفة معززة بأفضل الأسلحة. ومعروف أن موازنة هذه المؤسسة ربما كانت نسبـياً الأكـبر في العالم: نحو عـشرين في المائـة من الموازنـة العامة للبلاد.

التدخل في سوريا إذاً يأتي في إطار مشروع وخطة ليسا جديدين. والهدف معروف: منع سقوط نظام الرئيس بشار الأسد خصوصـاً المؤسـسة العسكريـة، والحفاظ على الحضـور الروسي الراجـح في الشرـق الأوسط وبناء قـاعدة ثابتـة في بلـاد الشـام. إضـافة إلى استـعادة العلاقات القـديمة مع مصر والعـراق.

والهدف أيضاً جـر أمـيركا وأورـوبا إـلى طـاولة تـفاوض تـشمل أـزمـتي سورـية وأـوكـرـانيا وغـيرـهـما من القـضاـيا الكـثـيرـة العـالـقة بـيـن الـطـرـفـينـ. وـكـانـ اـخـتـيـارـ توـقـيـتـ التـدـخـلـ مـدـرـوـسـاًـ، إـلاـ لـماـذاـ لمـ يـتمـ سـابـقاًـ عـنـدـماـ كانـ النـظـامـ فيـ دـمـشـقـ يـتـعرـضـ لـمـاـ تـعرـضـ لـهـ منـ تـرـاجـعـ فيـ الأـشـهـرـ الأـخـيـرـةـ؟ـ

خطـاـ الرئيسـ بوـتـينـ خطـوـتهـ فيماـ المعـنـيونـ الآخـرـونـ بـأـزمـةـ سورـيةـ مـنشـغـلـوـنـ بـأـزمـاتـهـمـ. وـلـاـ حـاجـةـ إـلـىـ سـرـدـ ماـ تـواـجـهـهـ أمـيرـكاـ وـأـورـوباـ وـتـرـكـياـ وـدـوـلـ الـخـلـيـجـ وـإـرـانـ وـمـصـرـ...ـ مـنـ صـرـاعـاتـ دـاخـلـيـةـ وـحـرـوبـ عـلـىـ حدـودـهـ، أـوـمـاـ تـعـانـيـهـ مـنـ تـدـاعـيـاتـ الـاتفاقـ النـوـويـ وـأـزمـةـ الـلـاجـئـينـ وـغـيرـهـاـ مـاـ بـاتـ مـعـرـوفـاـ.

لـذـاـ لـيـسـ مـبـالـغـةـ القـولـ إنـ الـكـرـمـلـينـ فـرـضـ قـوـاـعـدـ جـديـدةـ عـلـىـ الـلـعـبـةـ. وـمـاـ عـلـىـ جـمـيعـ الـمـعـنـيـيـنـ بـأـزمـةـ سورـيةـ سـوـىـ إـعادـةـ النـظرـ فيـ حـسـابـاتـهـمـ وـمـقـارـبـاتـهـمـ. وـالـحـدـيـثـ عـنـ اـحـتـمـالـ رـفـعـ التـحـديـ إـلـىـ حدـ الـانـخـراـطـ الـمـيدـانـيـ فـيـ الـحـرـبـ يـرـفعـ وـتـيـرـةـ الضـغـطـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ. وـالـهـدـفـ إـرـسـاءـ تـسـوـيـةـ سـيـاسـيـةـ مـرـضـيـةـ لـمـوـسـكـوـ، وـفـتـحـ حـوـارـ فـيـ شـأنـ الـأـزمـاتـ الـأـخـرـىـ وـعـلـىـ رـأـسـهـاـ أـوـكـرـانياـ مـنـ أـجـلـ فـكـ طـوـقـ العـقـوبـاتـ. وـهـذـاـ هوـ الثـمـنـ الـأـسـاسـ الـذـيـ تـرـيـدـهـ روـسـيـاـ. يـمـكـنـهـاـ أـنـ تـصـبـرـ عـلـىـ ضـائـقـتـهاـ كـمـاـ فـعـلتـ طـهـرـانـ الـتـيـ لـمـ تـجـدـ وـاـشـنـطـنـ فـيـ النـهـاـيـةـ مـفـرـأـ مـعـهاـ.

وقد نجـحـ الرـئـيسـ بوـتـينـ حتـىـ الـآنـ فـيـ فـرـضـ أـجـنـدـتـهـ عـلـىـ الـجـمـيعـ:ـ أـولـويـةـ الـحـرـبـ عـلـىـ الإـرـهـابـ. وـقـدـ بـدـأـ التـنـسـيقـ بـيـنـ الـقـيـادـيـيـنـ الـعـسـكـريـيـيـنـ فـيـ مـوـسـكـوـ وـوـاـشـنـطـنـ. وـلـعـلـهـماـ سـيـتـقـاسـمـانـ الـأـدـوارـ:ـ هـذـهـ تـتـولـيـ «ـدـاعـشـ»ـ سورـيةـ،ـ وـتـلـكـ «ـدـاعـشـ»ـ العـرـاقـ.

ليـسـ ضـرـوريـاـ جـلوـسـ الـطـرـفـيـنـ الـآنـ لـلـبـحـثـ فـيـ سـبـلـ التـنـسـيقـ. يـمـكـنـ تـكـرـارـ نـمـوذـجـ العـرـاقـ حـيـثـ يـخـوضـ التـحـالـفـ الدـولـيـ حـرـبـهـ عـلـىـ «ـالـدـوـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ»ـ وـتـخـوـضـ إـرـانـ حـرـبـهاـ هـيـ الـأـخـرـىـ،ـ كـلـ بـوـسـائـلـهـ فـيـ أـطـارـ قـوـاـعـدـ مـدـرـوـسـةـ وـمـصـانـةـ.ـ وـالـتـنـسـيقـ نـفـسـهـ هـذـاـ سـيـنـسـحبـ أـيـضـاـ عـلـىـ إـسـرـائـيلـيـيـنـ الـذـينـ أـغـارـوـاـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـةـ عـلـىـ مـوـاـقـعـ فـيـ قـلـبـ سورـيـةـ بـذـرـائـعـ كـثـيرـةـ.ـ وـهـوـ مـاـ سـيـحـمـلـهـ

بنامين نتانياهو إلى موسكو وهو يسمع بعض دوائره التي لا ترى ضرراً في الوجود العسكري الروسي إذا كان سيؤدي إلى إطالة الحرب التي تستنزف فيها إيران وينشغل بها «حزب الله»!

ولماذا لوم روسيا في فرض هذه الأولوية؟ أهل التحالف بدلوا في الأولويات. بريطانيا وفرنسا قررتا أخيراً، بعد أميركا، الانضمام إلى الطائرات الأمريكية التي تضرب التنظيم الإرهابي في سوريا. وأهملوا شروط أنقرة التي أصرّت على ضرب نظام الرئيس بشار الأسد أيضاً.

صحيح أن القوى الغربية لا تزال تتمسك بشعار رحيل الأسد، لكن انحرافها العسكري في الأجواء السورية ليس عملياً سوى رفع أولوية محاربة الإرهاب على أي قضية أخرى. أي أن مواجهة الإرهاب لا تسير بالتوازي مع التسوية السياسية التي تصر عليها واشنطن والعواصم الغربية وبعض العرب.

والسؤال اليوم: هل يبدل التدخل الروسي في المعادلات الحربية على الأرض؟ حتى الآن يصعب تحقيق إنجازات عجز عنها الجيش السوري وحلفاؤه. مثل هذا الأمر يستدعي النجاح بألاف الجنود.

إذاً هل يكتفي الروس بإعادة هيكلة الجيش السوري ومده بالعتاد الحديث اللازم لضمانبقاء النظام في المناطق التي يسيطر عليها حالياً مع تحسين بعض الواقع هنا وهناك؟ أم أن هناك هدفاً آخر من الحرب على «داعش» « علينا» هو تحقيق إنجازات على الأرض ترغم كل أطياف المعارضة، خصوصاً «الائتلاف الوطني» والفصائل العسكرية التي تسمى معتدلة على تلبي موقفها؟

من المسلم به أن الجبهات الساخنة التي تهدّد النظام يمسك بها «الجيش السوري الحر» والفصائل الإسلامية، من «أحرار الشام» إلى «جيش الإسلام» وغيرهما من أولوية و«جيوش». والانتكاسات الأخيرة التي أصيب بها كانت على هذه الجبهات، فضلاً عن تدمير التي استولى عليها تنظيم «الدولة الإسلامية». وأي تحرك روسي لاستعادة بعض ما فقده النظام يعني أن تشمل «الحرب على الإرهاب» حكماً كل هذه الفصائل «المعتدلة» وغير المعتدلة.

في ضوء هذا الواقع ربما هدف التدخل الروسي إلى إرغام المعارضة على القبول ببقاء الرئيس الأسد، إن لم يكن لفترة معينة، فعلى الأقل القبول بتقاسم السلطة معه، كل في أرضه. علمًا أن الأسد سيزداد تشدداً بعد الدعم الروسي. وهو أعلن أخيراً أن لا تسوية سياسية قبل دحر الإرهاب.

### أمام تطور كهذا لن يكون أمام المعارضة سوى خيارين:

إما مواجهة التدخل الروسي وتوسيعه، وإما القبول بخطة المبعوث الدولي ستيفان دي ميستورا بلا أسئلة وتحفظات، على رغم ما يكتنف مآلاتها من غموض وتعمعية، ومحاولة دفن بند الهيئة الحاكمة بصلاحيات مطلقة بين بنود أخرى كثيرة لا تدعو كونها مجرد قرارات وإجراءات يمكن هذه الهيئة اتخاذها مستقبلاً.

لأنه يتوقع أن يجازف الرئيس بوتين في الذهاب بعيداً. لا تغيب عن باله تجربة أفغانستان. ومن المبكر توقع حدود التدخل في سوريا.

الثابت حتى الآن أن الولايات المتحدة لم تبد معارضة. بل سارت إلى التنسيق. وقد ينتقل هذا من التكتيك العسكري كما قالت إلى حوار سياسي ما دام أنها هي الأخرى لا تمانع في «رحيل مؤجل» للأسد، ولا تريد سقوط النظام من دون ضمان «اليوم التالي». وإذا كانت موسكو ستساعدها على أهدافها الرئيسية في محاربة «داعش» فقد لا تجد غضاضة في مجارتها

في التسوية السياسية. وسيد الكرملين قادر على انتظار موعد لقائه مع الأميركيين والأوروبيين، ما دام أنهم سكتوا من قبل عن جورجيا وأوكرانيا. لكن الانتظار طويلاً ربما حمل مفاجآت غير محمودة، فالتدخل قد يتدرج ليهدد «نظرية» بريماكوف و«هجوم» بوتين!

#### الحياة اللندنية

المصادر: